

التفقه والاضطراب في العصر العباسي الثاني

وأثره على الأدب والأدباء

(أبو حيان التوحيدي أنموذجاً)



د. نادية تيحال (*)

عرفت الحركة العلمية خلال العصر العباسي الثاني ازدهارا وانتعاشا لم يعرف له مثيل لا من قبل ولا من بعد هذه الفترة، حتى أن الكثير من الأدباء اعتبر هذه المرحلة من أخصب المراحل الثقافية العربية الإسلامية .

وقد كان للانقسام^(١) السياسي الأثر العظيم في ذلك الازدهار، فرغم خروج الكثير من الأقاليم عن بغداد واستقلالها عنها إلا أن هذه الأقاليم كانت نفسها سببا في هذا الازدهار، حيث إنها لم تكن متنافسة فيما بينها في شئون السياسة فحسب، بل كانت أيضا متنافسة أشد ما يكون التنافس في جلب الأدباء والعلماء والإغداق في العطاء والبذل لهم لتشجيعهم على البحث والتأليف^(٢)، إلا أنه ورغم هذا الازدهار الثقافي فقد انعكس أثر الاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الكثير من علماء وأدباء العصر، ومن أشهر هؤلاء أبو حيان التوحيدي الذي التحف أبه بمسحة من الحزن والانقباض اللذين كثيرا ما

(*) أستاذة محاضرة بالمدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر .

أفضيا به إلى التنازح ومن ثم إلى التمرد على هذا الوضع المزري الذي عانى منه هو ومجموعة من الأدباء في عصره ، وسوف نتطرق في مقالنا هذا - إن شاء الله - إلى توضيح ذلك كله.

الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي الثاني وأثر ذلك على أهل العلم و الأدب:

لقد عرف المجتمع العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين بالكثير من مظاهر الفوضى والتفقه، فقد الأمن وكثر القتل وأصبحت المناصب الحساسة في الدولة نهياً بين الأقوياء ، يقول ابن الأثير في وصفه للحالة المزرية التي آلت إليها السلطة خلال حوادث ٣٣٤هـ إنه " في خلافة المطيع شغب الجند عن معز الدولة، وأزعجوه فضمن لهم أرزاقهم ، واضطر إلى خبط الناس ، وأخذ الأموال من غير وجوها ، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعاً... وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب." (٣) .

كثيرة هي المشاكل السياسية والمذهبية في العصر العباسي الثاني لقد كانت أمور الخلافة قد تطرق إليها الاضطراب منذ مستهل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بسبب استبداد الأتراك بالأمور دون الخلفاء ، كما ازداد عدد الخارجين عليها ممن حمل لواء الثورة على السلطة ، والتمرد على الحكم يضاف إلى ذلك ما أصاب الإدارة من فساد و تفقه.

فبعد أن كانت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين سيادة دينية أولاً ، ثم دنيوية ثانياً ، ثم غدت في عصر السيادة العربية (العصر الأموي وصدر

العصر العباسي (ملكاً واسعاً عظيماً، فلما انتهت هذه الفترة بدأت السيادة العربية تضعف رويداً رويداً، و تحول الحكم من سلطة ملكية إلى زعامة دينية مستضعفة حيث تغلب العجم الفارسيون ثم الأتراك على الدولة العباسية، فنقلت هيبتها وضاع صيتها خاصة حين تسلم الأتراك المناصب العالية في الجندية ثم الإدارة فأصبح الأمر كله بيدهم يولون الخلفاء تارة ويخلعونهم أخرى، فأذاقوهم ألوان الهوان والتعذيب الذي ينتهي في الغالب بالقتل.

وقد جاء في الفخري قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه الذين حكموا طيلة القرن الرابع الهجري فبسطوا يدهم على السلطة والشعب فيقول : " دَوَّخَتْ الأمم، وأذلت العالم ، واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولتهم واستوزرت الوزراء وصرفتهم، و انقادت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق" (٤).

ضعفت الخلافة المركزية في بغداد بدخول القرن الرابع الهجري، ولم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في يد بني بويه، والموصل والشام في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى ، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي : الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقيا، والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نهب أيدي الأتراك والديلم وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم (٥).

ويبدو أنّ الخطر الذي كان يهدّد الدولة العباسية لم يكن من الداخل فحسب ، بل وحتى من الخارج حيث تفاقم خطر الروم في ق ٤هـ ، وأخذوا يهددون شمالي العراق وبلاد الشام وكانوا يريدون الوصول حتى إلى بغداد وسواحلها^(١).

فانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية

فمن الناحية الاجتماعية ظهر بون شاسع بين الطبقات الشعبية وابتعاد عن العدل في توزيع الثروة العامة، وظهرت الطبقة بشكل صارخ ، فأصبح المجتمع يتكون من " الطبقة العليا التي تشمل الخلفاء والوزراء والقوات والولاة وما يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورؤوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان ونوي اليسار وهذه الطبقة كانت غارقة في النعيم تجبى لها الأموال من كلّ مكان ، وطبقة وسطى وتشمل رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع، وطبقة دنيا وتشكل العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق"^(٢).

ومن هنا وجد في المجتمع الأغنياء الذين يملكون الأموال الفاحشة، والفقراء الذين يرزحون تحت وطأة الفقر وشظف العيش.

لقد كانت الحالة الاجتماعية للطبقة العامة في حالة مزرية للغاية بسبب سوء توزيع الثروة العامة ، وزيوع الاستغلال والترف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا.

وتعد كتب التوحيد صورة صادقة عن الحالة التعسة التي آل إليها المجتمع في العصر العباسي الثاني، ولم يسلم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة من تلك الحالة، فهذا أبو سليمان السجستاني المنطقي المشهور: "بحاجة ماسة إلى رغيف وحوله وقوته، قد عجزا عن أجرة مسكنه، ووجبة غدائه وعشائه"^(٨)، وكان المعافى بن زكريا النهرواني ذا أنسة بسائر العلوم شاهده التوحيدي: "في جامع الرصافة وقد نام مستديرا في يوم شات، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم مع غزارة علمه واتساع أدبه، وفضله المشهور"^(٩)، وهذا أبو بكر القومسي "وكان بحرا عاجا، وسراجا وهاجا"^(١٠) قد بلغ من الضر والفاقة ومقاساة الشدة منزلة عظيمة، وهكذا كان الفقر والعوز من أهم ما ميز حياة أكثر الناس في العصر العباسي بما في ذلك أهل العلم والأدب.

أثر الاضطراب الشامل في العصر العباسي الثاني على واحد من أدباء العصر (أبو حيان التوحيدي):

لقد عاش التوحيدي^(١١) مدة طويلة وهو يعاني آلام البؤس والحرمان كيف لا وهو يحترف - على كره منه - مهنة الوراقة وهي مهنة شاقة متعبة قائلا: "لقد استولى عليّ الحرف"^(١٢)، وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا أسترزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف، والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع"^(١٣).

وهكذا كره أبو حيان هذه المهنة التي كانت سبب فقره ، وسخط عليها وتنمر منها لأن فيها ذهاب العمر والبصر ^(١٤) فمردها ضئيل، وصاحبها في فقر دائم، فاشتد بغضه لها حتى غدت في عينه إحدى المنغصات التي أفسدت مزاجه وعكرت عليه صفو حياته ^(١٥) والملاحظ أن التوحيدي لم يكن منفرداً في حالته تلك، فالكثير من علماء القرن الرابع قد امتنهن أحقر المهن ^(١٦) ورزح تحت وطأة الفقر، وعانى البؤس والحرمان، وقد أورد التوحيدي أمثلة عديدة عن حالة البؤس التي انحدر إليها زملاؤه من المفكرين والأدباء ^(١٧) لذلك نجد التوحيدي يقف ساخطاً متمرداً على العلم الذي لا يصون صاحبه : إذ العلم في نظره وسيلة لطلب الدنيا ^(١٨)، ويقف مدافعاً عن تلك الفئة من العلماء والأدباء التي تحاول جاهدة أن تصون ماء وجهها بعدم الترامي على الأعتاب التي تترفع على المزاحمة أمام الأبواب وهي فئة موجودة وإن كانت قليلة، يطالب التوحيدي بضرورة تقريبها وإكرامها لأن أصحابها هم رجال " رأوا أن سفّ التراب أخف من الوقوف على أبواب إذا دنوا منها دفعوا عنها " ^(١٩).

لقد عاش التوحيدي حياة أقل ما يقال فيها أنها مخاض طويل وصعب اضطره في الكثير من الأحيان إلى أن يبيع فيها النعمة والمروءة، وإلى أن يمارس النفاق والكذب علّه يحظى بما ينجيه من وطأة الفقر، وقد سجل هو ذلك على نفسه في نص نادر من أدب الاعترافات وذلك في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، وهي آخر ما وصلنا من ذلك المتقف الموسوعي الكبير حيث اختفت أخباره تماماً بعدها، فجاء في الرسالة ما يلي:

لقد اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم وي طرح في قلب صاحبه الألم^(٢٠).

لقد أراد التوحيدي من العلم والأدب أن يكون وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه من غنى وجه، ولكن الحظ لم يسعفه فكان الفقر حليفه، فأصبح العدو للدود المصاحب له، فوصفه بأقذع الأوصاف، فهو الذي يخرج المرء عن دينه، ويسلبه مروءته وعزة نفسه يقول فيه: "الفقر ليس لصاحبه عياذ من النقوى، ولا عماد من الصبر ولا دعامة من الأنفة واصطبار على المرارة، وهو جالب الطمع، وكاسب الجشع والضرع وهو الحائل بين المرء ودينه بل هو سد نون مروءته وأدبه وعزة نفسه"^(٢١).

وهكذا فالفقر في نظر أبي حيان عدو يسلب الإنسان مروءته، فنجدته يشهر سلاح التذمر والشكوى وفي ذلك موقف عبر به عن رفضه لهذا الواقع الذي فرض عليه فيثور وإن لم يكن ذلك بالسيف فإنه بسلاح لا يقل حدة.

وكثيراً ما تنفقع مرارة الرجل بسبب فقره، ويشتط به الأمر، فيضطره إلى تعريض أعز ما يملك كرامته وأدبه للمهانة، والمدح الرخيص فيقول: "أنا سامع مطيع وخادم شكور، ومثلي يهفو ويجمع، وأنت مولى وأنا عبد، وأنت أمر وأنا مؤتمر، وأنت مصطنع وأنا صنيعة وأنت منشئ وأنا متشأ، وأنت أول وأنا آخر"^(٢٢)، ويتابع أبو حيان في الحديث عن نفسه، وما يختلجها من

أسى ولوعة، وما يلقاه من صد وإهمال ونكران فيقول: "أيها الكريم ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كلّ شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقدير والتيسير إلى أربعين درهماً مع هذه المنونة الغليظة والسفر الشاق والأبواب المحجّبة والوجوه المقطبة والأيدي المسمرة، والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة، أيها السيّد أقصر تأملي، ارع زمام الملح بيني وبينك وتذكر العهد في صحبتي، طالب نفسك بما يقطع حجلي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويق الذي لا آخر معه" (٢٣).

وهكذا فقد حاول أبو حيان بكل السبل التمرد على وضعه وفقره، الذي ألمه فحاول بكل جهد أن يدفعه وإن كان ذلك عن طريق التوجع والاستجداء، وهو من خلال ذلك كله إنما يعكس لنا مشكلة الطبقة في القرن الرابع الهجري بل وفي كلّ زمان ومكان فهي مشكلة فقراء وأغنياء، ميسورين ومحرّمين (٢٤).

لقد تمرد أبو حيان على واقعه وثار في وجه القدر، وصرخ معبراً عن مرارة غضبه على الأيام، فأعلن الشكوى من زمانه، وبكى في إبداعاته على معاناته وحرمانه كيف لا وهو "على كثرة ما صاحب من ذوي السلطان وأصحاب النفوذ في الدولة بانساً فقيراً، رفيق الحال دائم التفكير في أهل الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقوصون ومقارنة ذلك كله بما هو عليه من البؤس والشقاء وشظف العيش، وتكفف الكريم واستجداء البخيل واللّينيم على سعة فضله، وإحاطته بما يلهج به الناس من المعارف إلى وقته..." (٢٥).

وشدة فزع الرجل من الفقر إنما نلمحه في كتاباته، فهي هو يكتب إلى أبي الوفاء مستجدياً طالباً منه أن ينتزعه مما هو فيه من هول الفقر : " خلصني أيتها الرجل من التكفف، أنقذني من لبس الفقر أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان اعتبدي بالشكر، استعمل لسانني بفنون المدح، اكفني منونة الغداء والعشاء..."^(٢٦)

كثيرة هي النصوص التي عكس فيها الرجل تمرده وسخطه على الفقر، فنلاحظ جلياً من خلال ما سبق وفي معظم ما خط التوحيدي يراعه تذر هذا الأديب المنسحق تحت وطأة الفقر والعوز، لم يعرف الرجل استقراراً ولا أماناً كل ذلك على أمل التخلص من هذا الصاحب الثقيل الذي أبى إلا أن يصاحبه طيلة عمره، فتنتقل بين بغداد والري و نيسابور وواسط وشيراز^(٢٧) كل ذلك بغية الخلاص منه ، إلا أن القدر أراد غير ذلك.

لقد غدا الفقر في نظر التوحيدي وهو الرجل المرهف المشاعر ، رقيق الإحساس سريع التأثر والانفعال ، فكرة رهيبة، تنطوي على معاني الحرمان والجهد الأليم لذا يظهر لنا الفقر في كل نفثة من نفثاته يقول: " رأيت شبابي هراماً بالفقر، وفقري غنياً بالقناعة"^(٢٨).

وقد بلغت به شدة حاله وعوزه أنه كان لا يظفر حتى بقوته الضروري وعجز في الحصول حتى على " طمرين للتستر لا للزينة والاختيال "^(٢٩)، فكان يأكل الكسيرة اليابسة و البقيلة الداوية، ويلبس القميص المرقع ويتأدم بالخبز والزيتون.^(٣٠)

وما التوحيدي في الواقع إلا صورة لمتقفي القرن الرابع الهجري فكانت
أثاره صدى لحالة البؤس التي انحدر إليها الناس في زمانه ومن بينهم
المفكرون وأهل الأدب والمعرفة لكن تفرد يظهر لنا في شدة شعوره بهذا الفقر
وفي كثرة تبرمه به ومحاولته التخلص منه وكثرة شكواه خاضعاً في ذلك كله
لشعوره بأنه يستحق أكثر مما منحتة الأيام^(٣١)، لقد وقف أبو حيان من الفقر
في زمانه موقف الناقد والرافض والمستنكر ، ولعل ذلك هو ما حمله إلى أن
يقول على لسان بن السماك (أبو العباس محمد بن صباح الكوفي، ت: ١٨٣هـ/
٧٩٩م) .^(٣٢)

" لولا ثلاث لم يقع حيف لم يسل سيف:

لقمة أسوغ من لقمة

ووجه أصبح من وجه

وسلك أنعم من سلك".^(٣٣)

ف نجد هاهنا يقف موقف المصلح في مجتمعه، معللاً سبب مختلف
الاضطرابات والصراعات الاجتماعية التي يتخبط فيها أبناء عصره ، فيؤكد
أن ذلك يرجع إلى التفاوت الاقتصادي، وبذلك يؤكد التوحيدي على أن البؤس
الشاسع الموجود بين طبقات مجتمعه هو سبب الصراع والتطاحن فيما بينها ،
وكانى به يدعو ضمناً إلى ضرورة المساواة الاقتصادية حتى يتوفر الاستقرار

الاجتماعي ، وحتى يستتب الأمن فلا يسئل الناس السيوف على بعضهم البعض.^(٣٤)

مواقف كثيرة ماثلة في آثاره يعكس لنا التوحيد من خلال تصويره لمعاناة وفقر الآخرين^(٣٥) معاناته هو وفقره فنلمس بذلك فظاعة الممرارة التي عانى منها الرجل وذلك أمر طبيعي على كل من كان في مثل علمه وأدبه ومع ذلك يجد نفسه عاجزاً حتى على أن يجد عملاً ، أو رأس مال يستعمله في تجارة أو حرفة تؤمن له رزقه، فيصون بذلك ماء وجهه من ذل السؤال لكن هيهات، فيضطر إلى أن يطلب من أبي الوفاء المهندس أن يستعمل جاهه عند الوزير ابن سعدان وذلك كي يجد له عملاً ، أو يمدّه برأس مال يعتق نفسه من الفقر والحاجة فيقول:

" سرّحني رسول إلى صاحب البطائح^(٣٦) أو إلى أبي السؤل الكردي^(٣٧) أو إلى غيره ممّن هو في الجبال هذا إلى أن تؤهلني برسالة إلى سعد المعالمي^(٣٨) بأطراف الشام وإلى البصرة، فإني أبلغ في تحمل ما أحمل، وأداء ما أؤدي، و تزوين ما أزين حدا أملك به الحمد و أعرف فيه بالنصيحة واستوفي فيه الغاية دع هذا ، ودع لي ألف درهم، فإني لأتخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة في درب الحاجب " ^(٣٩) يتجلى لنا من خلال ما سبق أن التوحيدي كان يدرك قدراته وإمكانياته في القيام بأعظم الأعمال وأجلها، ولكنه بطل لا يقدر على تأمين عيشه ، وهذا ما يزيد في مرارته وحزنه وبالتالي

تمرده ورفضه لهذا الواقع الذي لا يعطي لأصحاب الحق حقوقهم فيتركهم يعانون الفقر والحرمان بينما ينعم غيرهم في بحبوحة من العيش.

لقد عانى التوحيدي الكثير من الفقر الأمر الذي أداه هو ومن كان في مثل حاله إلى الوقوع تحت وطأة التطير والتشاؤم، فأصبح يرى أن حظه من الحياة العسر وأن الشؤم له قرين، وها هو ذا يورد لنا قصة أبي بكر القومسي وقصيدة العطوي لا شيء إلا ليصف من خلالهما حاله^(٤٠) إذ يقول : " وأنشدنا أبو بكر القومسي الفيلسوف... وكان من الضر و الفاقة بمنزلة عظيمة ، عظيم القدر عند نوي الأخطار ، منحوس الحظ منهم، متهماً في دينه عند العوام مقصود من جهتهم، فقال لي يوماً : ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغت مني، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس، وكان بالعطوي ما أراد بقصيدته غيري، وما عني بها سراي، ثم أنشدنا للعطوي :

من رماه الإله بالإقـتـار	وطلاب الغنى من الأسفار
هو في حيرة وظنك وإفلا	س وبؤس ومحنة وصغار
يا أبا القاسم الذي أوضح الجو	د إليه مقاصد الأحرار
خذ حديثي فإن وجهي مذبا	رز هذا الأنام في ثوب قار
وهو للسامعين أطيب من نف	ح نسيم الرياض غب القطار
هجم البرد مسرعا ويدي صف	ر و جسمي عار بغير دثار

فتسرت منه طول التشاري — ن إلى أن تهتكت أستاري

ونسجت الأظمار بالخيط والإب رة حتى عريت من أظماري

وسعى القمل من دروز قميصي من صغار ما بينهم و كبار^(٤١)

وهكذا كثير ما كان يلجأ التوحيدي إلى استلهام شخصيات شعبية، وهي في الواقع نماذج تعكس لنا صورة حياته القاسية اتخذها التوحيدي وسيلة لتصوير واقعه المر وواقع فنة من الناس عاشت الفقر وظلم الدهر هي فنة العلماء والفقراء والبؤساء^(٤٢) ، وفي الوقت الذي يشكو فيه التوحيدي عن طريق هذه النماذج الإنسانية فقره وعوزه نجده يعلن تمرد وسخريته من خلال تمرد هؤلاء، فالقومسي الذي رفض أن يقصد ابن العميد وابن عباد حين نصح بذلك فقال : " معاناة الضر والبؤس، أولى من مقاساة الجهال والتبوس والصبر على الوحم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل، ثم أنشأ يقول معلنا رفضه وتمرده على أمثال هؤلاء فيقول:^(٤٣)

بيني و بين لنام الناس معتبة ما تنقضي وكرام الناس إخواني

إذا لقيت لنيم القوم عنفني وإذا لقيت كريم القوم حياتني

والغاية التي يريدها التوحيدي من خلال إيراد هذه الحكاية ولهذا الشعر الذي أثبت فيهما الموقف التمردى للرجل أن يعكس تمرد هو فيقول: " فقلت له: ما أعرف لك شريكا فيما أنت عليه وتقلب فيه و تقاسيه سواي ".^(٤٤)

فكر وإبداع

وهكذا فقد كان التوحيدي من الذين حكمت عليهم الأقدار بالفقر والبؤس والشقاء، ومما زاد الطين بلة كونه يحمل بين جوانحه نفساً ميالة إلى التمتع بالعيش، وإلى الاستمتاع " بحياة لذينة " ، وبالغم من اتجاهه إلى التصوف ، وتظاهره بالزهد والقناعة إذ كان صوفي السميت^(٤٥)، قبيح الهيئة، حقير اللبسة^(٤٦) كانت نفسه تنزع دوماً إلى تحقيق رغباته ، وإلى الفوز بالغنى والجاه لأن " هذه العاجلة محبوبة والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلو خضرة، وعذبة نضرة " ^(٤٧)، ولكنه جوبه بعقبات جمّة عكرت صفو حياته الأمر الذي أداه إلى " اتخاذ الانقباض صناعة " ^(٤٨) وصار يتنخص " لبعد ما يشتهي " ^(٤٩) حتى غدا محدوداً محارفاً يتشكى صرف زمانه ويبيكي في تصانيفه على حرمانه " ^(٥٠) ، وكيف لا يبكي صرف الزمان وهو يعتقد أنه رجل موهوب، ذو نكاه ممتاز وملكات متفوقة، لكنه قتر عليه أن يعيش دهره فقيراً باتساً محروماً.

كما نجده في موقفه ذلك الذي نبذه بعض الدارسين^(٥١)، أفضل من الكثيرين ممن كانوا في مثل حاله حيث تدنوا إلى المستوى الذي يتمنى فيه أحدهم لو كان شجرة أو حجراً حتى يسلم مما هو فيه من حرمان ، بل أن هناك من تمنى لو أنه كان بقرة حين رأى وادياً أغنى بالكلأ وقد استحسنت الأرض خضرة وذلك حتى يسد رمقه و يأكل مما يرى أكلاً ذريعاً فيقول التوحيدي معلقاً على هذا: " فهل تظن - حفظك الله - بعد هذا، بمن هذا حديثه ، وجملته وتفصيله، أن ينتعش من صرعه أو يستبصر في شأنه أو يهتدي لسعادته، أو

يلتفت إلى معاده، وهل بين هذا وبين الحمار الذي هو حيوان نهاق فرق... على أنني شاهدت مثل هذا إنساناً متماسكاً، وكان له حظ من التجربة بالسنن العالية، والسفر البعيد، وكان متميزاً بمذاهب الصوفية يقول يوماً وقد أبصر حماراً يمشي: ليتني كنت هذا الحمار، فعجبت فضل عجب، وانكشف لي أنه إنما تمنى ذلك ليكون ناجياً من قلائده و منونة ما هو بعرضه، ...، وما هو مأخوذ به ومخوف منه ومعذ له أجلاً " (٥٢)

من خلال ذلك نستخلص أن أبا حيان استطاع أن يعرف قيمة الجوهر الإنساني وحقيقته فترفع على أن يكون مثل هؤلاء (٥٣) واستهجن مثل تلك التمنيات، ووقف في مواجهة واقعه المر، معلناً عن موقفه الرافض لكل ذلك دون أن يتنازل عن قيمته كإنسان، و تفكيره هذا جعله يرفض موقف أولئك الذين يلجأون إلى الانتحار هروباً من واقعهم، فيقول متسائلاً: " ترى ما السبب في قتل الإنسان نفسه عند إخفاق يتوالى عليه، وفقر يحوج إليه وحال تتمنع على حوله وطوقه " (٥٤)، ثم هو يسأل بعض مشايخه بمدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر، وقد اكتنفه الجلاوزة يسوقونه إلى السجن، فأبصر موسى وميضة في طرف دكان مزين فاخطفها كالبرق، وأمرها على حلقومه، فإذا هو يخور في دمانه.

يسألهم من قتل هذا الإنسان؟.. ويجيبه صديقه مسكويه عن سؤاله، ثم يذيل الجواب بنفي الشجاعة عن مثل هذا المنتحر، لأن فعله من أثر النفس الغضبية

لا من أثر النفس الناطقة، فهو جبان ضعيف ، حاول أن يستريح من تحمل المشقة والنكول يسمى جبناً.^(٥٥)

ويروي أيضاً أنه شاهد رجلاً من أهل العلم: "ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتد نفور الناس عنه، ومقت معارفه له، فلما توالى هذا عليه دخل يوماً منزله، ومدّ حبلاً إلى سقف البيت واختنق به"^(٥٦) فالتوحيدي يقف موقف الرفض لتصرف بشع كهذا، رغم كونه قد سمع من بعض أصدقائه الفلاسفة حمداً وثناء لهذا الذي انتحر، إلا أنه يتنكر لهذا الفعل، فرغم كونه يجد صورة نفسه في أولئك المنتحرين في يؤسهم وشقائهم وسوء حالهم وضيق رزقهم إلا أنه يرفض طريقتهم في التخلص من معاناتهم وشقائهم والتي تتمثل في التخلص من الحياة.^(٥٧)

كان هذا عرض لأهم المواقف التي يظهر لنا فيها رفض التوحيدي لواقعه وبؤسه وفقره، فلجأ تارة إلى وصف حاله من خلال عرض نماذج لشخصيات كانت تعاني الفقر والعوز، وتارة يلجأ إلى الاستجداء طالباً العون ممن يرى فيهم القدرة على ذلك، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أنّ بعض الدرسين كانوا يرون في تلك الصرخات إذلالاً ومهانة الحقهما التوحيدي بشخصه وبأدبه^(٥٨) ، إلا أننا نرى أنّ الرجل اضطر إلى ذلك اضطراراً، و ما كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك ، لقد أدرك التوحيدي أنّ الاستغناء عن العمل مع السلطان كان أمراً مستحيلاً بالرغم من حبه للاستقلالية فقال: "والعزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرّجة إن لم تكن لها أداة

تجدها^(٥٩) وفاشية^(٦٠) تمدها، وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا يستطيع إلا بدين متين و رغبة في الآخرة شديد، و فطام عن دار الدنيا صعب، ولسان بالحلو والحامض يبلغ".^(٦١)

لقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره، عاش وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ويتقدم عليهم، فرغم ما أوتيته من علم وثقافة فإنه لم ينجح في تحقيق ما يريد ، فأصبح نتيجة ذلك فريسة للغيب والحسرة، كيف لا وهو لم يتمكن من التمتع بالحياة قبل فوات الأوان، ألم يقل: "إن العمر قصير، والساعات طائفة، والحركات دائمة، و الفرص بروق تأتلق ، والأوطار في غرضها تجتمع وتقترق، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق"^(٦٢) لذلك اشتدت كراهيته لمجتمعه فنفر منه، وفضل العزلة ومال إلى التصوف بعد أن خاب أمله في حياة هنيئة راضية، فانهزل عن المجتمع واتجه إلى الله ، وعندما شعر بغروب شمس العمر وبعد أن عجز عن الخلاص من الفقر الذي ملّ الرزوح تحت وطأته مال إلى التصوف^(٦٣) وكان ذلك احتجاجاً سلبياً في وجه مجتمع لم يعرف قدره، يدل على ذلك ما ذكره في رسالته إلى أبي الفتح ابن العميد جاء فيها: "لما رأيت شبابي هراماً بالفقر، وفقرى غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عن أهل التحصيل عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه وموضعي منه، فرأيت طرفه نابياً ، وعنانه عن رضاي منثياً وجانبه في مرادي خشناً، وارتقائي في أسبابه نائياً، والشامت بي على الحدثان متمادياً ، طمعت في السكوت تجلداً وانتحلت القناعة رياضة، وتألفت شارد حرصي متوقفاً، وطويت منشور أملي

متنزها، وجمعت شتيت رجائي ساليا، وأدعيت الصبر مستمرا ، ولبست العفاف ضنا، واتخذت الانقباض صناعة وقمت بالعلاء مجتهدا ، هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين: رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة^(٦٤) وإن سكت سكت عن ضعف وإحنة، ورجل إن بذل كثر بامتنانه بذله وإن منع حسن باحتياله بخله فلم يطل دهري في أثنائه متبرحا^(٦٥) بطول الغربية، وشظف العيش، وكلب الزمان، وعجف المال، وجفاء الأهل وسوء الحال^(٦٦).

كانت هذه صورة عن حياة واحد من المثقفين في عصر ساءت فيه الأمور من جميع النواحي وغلب فيه الأمراء والرؤساء والملوك على الخلفاء وكثر فيه الظلم والعدوان ومن هنا كان تشاومه ، فهو وليد تجاربه القاسية وخيبة أمل متكررة ، لقد تألم أيما ألم لتجاهل معاصريه له ، وازداد بذلك البون سعة بينه وبينهم فكان نتيجة ذلك عرضة لليأس والقنوط وفي سورة غضبه أحرق كتبه التي أفنى العمر في تأليفها، لقد صدم أبو حيان بمجتمع فجعه في أماله وطموحاته.

الهوامش:

(١) ما إن دخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الخلافة المركزية في بغداد و لم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في يد بني بويه ، والموصل وديار ربيعة وبكر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي:

الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في إفريقيا والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نهب أيدي الأتراك والديلم والأتراك ما هم في الواقع إلا جيل من التتر بينما الديلم هم سكان الجبال في فارس وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم (انظر أمراء البيان ، محمد كرد علي، ج:٢، ص: ٤٩٤-٤٩٥).

(٢) انظر أدباء الصابئة في العصر العباسي ، د. محمد الديباجي ص: ٤٢-٤٣

(٣) الكامل، ابن الأثير، ٢١٧/٦

(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي، ص: ٢٠٦

(٥) انظر أمراء البيان ، محمد كرد علي، ج:٢، ص: ٤٩٤-٤٩٥.

(٦) انظر القرامطة وأصلهم، نشأتهم ، تاريخهم، حروبهم، عارف تاسر، ص:

(٧) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، ص: ٥٣.

(٨) الإمتاع و الموانسة، أبو حيان التوحيدي، ٣٠/١

(٩) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي، ١٥٢/١٩.

(١٠) المصدر نفسه، ٢٩٧/٤.

(١١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي، وقد عاش طفولته في كنف

أسرة فقيرة معدومة رازحاً تحت وطأة الفقر والحاجة، فقد أبويه وعاش في كفالة عمه الذي كان يمقته، ولا يحسن معاملته (انظر البصائر والنخائر ٤٧٥/٢)، الأمر الذي ولد في نفسه السخط الدائم على المجتمع والتنمر والتشاؤم من الحياة و الأحياء، ومن هنا نجد من خلال كتاباته ذلك التمرد الدائم على المجتمع ككل، كيف لا وقد ظلّ طيلة حياته يلهث وراء أمل فصدم بواقع مر، إذ وجد نفسه وحيداً فريداً غريباً فكان مما زاد في غربته أنه عاش طيلة حياته أعزب فلم يتزوج ولم ينجب فما عرف ولداً نجيباً ولا صديقاً حبيباً ولا صاحباً قريباً ولا رئيساً منيباً، لقد سخر الرجل حياته كلها لطلب العلم والسعي وراء الجاه والمال، لكنه اصطدم بالفشل الذريع، إذ لم يحقق له العلم ما كان يصبو إليه ، وفي فورة الغضب والثورة على المجتمع أشعل التوحيدي النار في كتبه معلناً بذلك تمرده على المجتمع الذي لم يقدر علمه حق قدره (انظر أبو حيان التوحيد، إبراهيم الكيلاني، ص: ٣٤-٣٥)، أما عن وفاته فقد تضاربت الآراء في تاريخها، فمن الدارسين من يرى أنّ وفاته إنما كانت سنة

٤٠٠هـ (انظر أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات، عبد الأمير الأعمى، ص: ٥٧)، ومنهم من يرى أن ذلك إنما كان سنة ٤١٤هـ (انظر أبو حيان التوحيد، إبراهيم الكيلاني، ص: ٣٤-٣٥، ومقدمة كتاب مثالب الوزيرين، مصدرة بمقدمة عن حياته وأثاره وأدبه، د/ إبراهيم الكيلاني)، ومنهم من لم يدل برأي البتة في تاريخ وفاة الرجل (انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ١٣٣/٢) و الصواب في رأينا أن التوحيدي قد أشار في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد (انظر نص الرسالة في معجم الأدياء لياقوت الحموي ٢٩٤/٤ وما بعدها) والتي يعلل فيها أسباب إقدامه على إحراق كتبه، ففي هذه الرسالة يخبر التوحيدي أنه في عشر التسعين، وقد كان ذلك في رمضان سنة ٤٠٠ للهجرة، و من خلال الرسالة ذاتها يبدو لنا التوحيدي في منتهى اليأس والقنوط وهو على فراش الموت ومعلوم أنه لم يصلنا بعد تلك الرسالة أي خبر عن الرجل على الإطلاق ، وفي ما يؤكد على أن وفاة الرجل إنما كانت في فترة جد قريبة من هذا التاريخ (انظر أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، د/ عبد الأمير الأعمى ص: ٥٨) لذلك نجد الزركلي قد مال إلى تحديد تاريخ الوفاة بحوالي سنة ٤٠٠هـ (انظر الأعلام، لخير الدين الزركلي ١٤٤/٥، الطبعة الثانية، مطبعة كوستانتوماس ص: ١٩٥٦)

(١٢) الحرف: قلة الحظ، ورجل محارف ، منقوص الحظ لا ينمي له مال.

- (١٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩٢/٤.
- (١٤) انظر معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٨٥/٥.
- (١٥) انظر أبو حيان التوحيدي، د/ إبراهيم الكيلاني، ص: ١٩.
- (١٦) انظر مجلة فصول في النقد الأدبي، المجلد ١٤ العدد الرابع، مقال بعنوان " الصداقة والصديق " لأحمد كمازكي، ص: ٢٨٤.
- (١٧) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيد، ٣٠/١، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٥٢/١٩، و ٢٩٧/٤.
- (١٨) انظر رسالة أبي حيان التوحيدي في الرد على القاضي أبي سهل علي بن محمد، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩٤/٤.
- (١٩) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢١٢/٣.
- (٢٠) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩٦/٤.
- (٢١) انظر مثالب الوزيرين، ص: ٣١٤.
- (٢٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٨-٧/١.
- (٢٣) المصدر نفسه، ٢٢٧/٣-٢٢٨.
- (٢٤) انظر أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء و أديب الفلاسفة، محمد علي الصباح، ص: ٤٨.

(٢٥) أبو حيان التوحيدي ، حياته، آثاره ومروياته ورسائله، حسن السندوبي ص: ١١.

(٢٦) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢٢٦-٢٢٧.

(٢٧) انظر الفردية والأنا في شخصية أبي حيان التوحيدي، حسن نور الدين ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٥٤، ص: ٨٧.

(٢٨) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٠٥/٤.

(٢٩) انظر الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، ص: ٥.

(٣٠) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس، ٢٢٧/٣.

(٣١) انظر أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس، ص: ٣٧.

(٣٢) ابن السماك" هو أبو العباس محمد بن صبيح الكوفي الزاهد الوعظ المشهور لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم و قدم من بغداد زمن هارون الرشيد وتوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة بالكوفة " (هامش ص: ١٤، ج ١: من الإمتاع و المؤانسة)

(٣٣) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ص: ١٤.

(٣٤) انظر أصداء المجتمع و العصر في أدب أبي حيان التوحيدي، نور الدين بن بلقاسم، ص: ٢٠٠.

(٣٥) انظر الإمتاع والمؤانسة، ٥١/٢.

(٣٦) صاحب البطائح: يبدو أنه أحد أبناء عمران بن شاهين) ت
٣٦٩هـ/٩٧٩م) ممن ورث إمارة البطائح بعد أبيه (انظر الزركلي
٢٢٣/٥).

(٣٧) أبو سؤل الكردي: لم نهتد إلى هذا الاسم فيما بحثناه من كتب التراجم ،
ولكن يبدو أنه من أمراء الجبال كما يفهم من نص أبي حيان.

(٣٨) سعد المعالمي: لم أهتدي أيضا إلى ترجمة هذا الاسم ولكن يبدو أنه من
الأمراء ببلاد الشام.

(٣٩) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢٢٧/٣.

(٤٠) انظر أبو حيان التوحيدي و التراث الشعبي، مجلة فصول ، المجلد ١٤ ،
العدد ٤ ، ص: ٢٦٧ ، و معجم الأديباء، ياقوت الحموي، ٢٩٧/٤.

(٤١) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق و شرح حسن السندوبي ص:
٩٩ ، و معجم الأديباء، ياقوت الحموي، ج: ٤ ، ص: ٢٩٠-٢٩١.

(٤٢) انظر مقال " أبو حيان التوحيدي والتراث الشعبي "، مجلة فصول المجلد
١٤ العدد ٤ ، ص: ٧١.

(٤٣) معجم الأديباء، ياقوت الحموي، ٢٩١/٤.

(٤٤) المصدر نفسه، ٢٩٢/٤.

(٤٥) انظر المصدر نفسه، ٢٨٧/٤.

(٤٦) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٦٥/١.

(٤٧) المصدر نفسه، ١٣/١.

(٤٨) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٨٨/٤.

(٤٩) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٥٠) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٥١) لقد اضطر أبو حيان تحت وطأة الفقر ولشدة معاناته إلى أن يلجأ إلى الاستجداء والدح المبالغ فيه، فذم بعض الدارسين اتجاهه هذا ورأوا فيه أن أبا حيان قد أخط من كرامته وأدبه عن طريق هذا النوع من الاستجداء، ومن هؤلاء محمد علي الصباح في كتابه "أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة" ص: ٣٦-٣٧، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، ص: ١٦٦.

(٥٢) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ٢١٧-٢١٨.

(٥٣) انظر أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس، ص: ١٠٩-١١٠.

(٥٤) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، ص: ١٥٠.

(٥٥) المصدر نفسه، ص: ١٥٦.

(٥٦) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص: ٢١٩.

(٥٧) انظر أبو حيان التوحيدي، د. إحسان عباس، ص: ١٠٨.

(٥٨) انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، ص: ١٦٦،
وأبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محمد علي
الصباح، ص: ٣٦.

(٥٩) تجذها: تجدها.

(٦٠) الفاشية: ما انتشر من المال.

(٦١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ١٤/١.

(٦٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي ٣٦/١.

(٦٣) نود الإشارة إلى أن التوحيدي في تصوفه كان صوتاً ناشزاً عن بقية
متصوفة عصره، فلم يؤيد خرافات الصوفية في العزوف عن المادة
والتجرد للحياة الروحية البحتة لأنه مارس الحياة وعرف موضع المادة
منها و كابد متطلبات الإنسان الجسمانية، وفي رأيه أن الموسرين فقط
يمكنهم الانقطاع الكلي لله والانصياع المطلق للنسك، يقول: "العزلة
محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية والقنعة مزرة (خمرة لذينة) فكهة
ولكنها فقيرة إلى البلغة، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة "
(الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، ص: ١٤)

(٦٤) الدمنة: الحقد القديم.

(٦٥) تبرّح: تألم وتضجر.

(٦٦) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٠٥/٤-٣٠٦.